المثل الشّعبيّ وانعكاساته على ثقافة المجتمع
مقاربة سوسيولوجيّة

عبد القادر شرشار
جامعة وهران

تعتبر كلودين شولي ومن خلال مسارها الطويل في البحث أن علماء الاجتماع في البلاد المغاربية قد استوعبوا ضرورة القيام بمقاربات تفهمية حول المأثور الشعبي ولا سيما الأمثال الشعبية، وتؤكد قيمة هذا المتن في دراسة التحولات الاجتماعية والاستماع الدقيق للثقافة وهي تتشكل[1].

وليس من باب الصدفة أن يعتبر بعض الباحثين الأمثال الشعبية مدونة في غاية الأهمية لبناء بحوثهم الميدانية، ومقارباتهم العلمية، ومن هذا المنطلق نقترح هذه الورقة.

أثر الأمثال الشّعبيّة في سلوكنا

تعد الأمثال الشعبية من أبرز عناصر الثقافة الشعبية، فهي مرآة لطبيعة الناس ومعتقداتهم، لتوالفها وتغلغلها في معظم جوانب حياتهم اليومية، تعكس المواقف المختلفة، بل تتجاوز ذلك أحيانا لتقدم أنموذجا يُقتدى به في مواقف عديدة. كما تساهم الأمثال الشعبية في تشكيل أنماط اتجاهات وقيم المجتمع مما جعل بعض الباحثين والمهتمين بدراسة الثقافة الشعبية يجعلونها محورا أساسيا في أعمالهم البحثية، لما يتسم به المثل من خصائص تساعد على تتبع نشأته، فلكل مثل حكاية تشكل أنموذج حياة وتماثل مع التجربة التي أحاطت بمن ضرب به المثل.[2]

المثل فن قديم، يصاغ انطلاقا من تجارب وخبرات عميقة،يحمل تراث أجيال متلاحقة، يتناقلها الناس شفاها أو كتابة، تعمل على توحيد الوجدان والطبائع والعادات، ولذلك يعدها البعض حكمة الشعوب، وينبوعها الذي لا ينضب، وقد تقوم في هذا المجال بدور فعال في دفع عجلة المجتمع إلى الأمام باتجاه التطور والبناء. لذلك ينظر إليها باعتبارها وثيقة تاريخية، واجتماعية[3].

نشأة الأمثال

إن نشأة المثل غير واضحة تماما، فليس هناك من يجزم بأمر في تاريخ نشأته ومكانه، والأرجح أن يكون نشوء المثل قد ترافق مع ذيوع الكتابة.

وقد تحدث الباحثون عن تنوع مصادره، فبعضها تفرزه حكاية شعبية أو نكتة لا يعرف قائله، وبعضها الآخر مقتبس عن الفصحى مع ما يصحب هذا الاقتباس من تحريف وتصحيف وتعديل، وبعضها مستخلص من التراث الطبي وغيره، مما يؤكد قدم هذا التراث، ولعل الكثير منه ضاع ويضيع يوميا، وما يحول دون ذلك هو كثرة مثل هذه الحلقات العلمية والندوات وأعمال المخابر المختلفة.

يغلب على الأمثال أنها تعبير عن الحكمة الشعبية بين الناس، إنها جنين تجربة وبداهة فرد، رسختها الشفاه الشعبية نتاجا جماعيا، فأضحت حكمة الأجيال وصوت الشعوب (كما تقول جمانة طه في كتابها القيم : موسوعة الروائع في الأمثال والحكم 2002) [4].

وقد تنبهت بعض الأمم قديما (كالسومريين والكلدانيين مثلا) إلى جعلها وسيلة تعلم، فنقشوها على ألواحهم، مما يؤكد فكرة كتابة الأمثال عكس ما يروّجه البعض كونها تراثا شفاهيا لدى الشعوب القديمة.

ظهر الاهتمام بالأمثال في العصر الجاهلي عند العرب، حيث سجل الشعراء ذلك في بعض أشعارهم كما تبدى الاهتمام بها في العصر الإسلامي الأول من خلال إعجاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالذين نطقوا بالحكمة،

وتفوهوا بالمثل، وقد ردد الكثير منها في بعض أحاديثه الشريفة ولا سيما المأثورة منها عن النبي لقمان عليه السّلام.

جاء في رسالة بعث بها الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى الأنصار : "علموا أولادكم العوم والفروسية، ورؤوهم ما سار من المثل وما حسن من الشعر".

وكاد أن ينقطع تدوين الأمثال وجمعها في عصر الدويلات والطوائف، لولا أن محمد بن أحمد الأبشيهي (ت825هـ) وضع كتابا أسماه "المستطرف من كل فن مستظرف" جعل فيه بابا خاصا بالأمثال الشعبية العامية[5].

وفي مطلع القرن العشرين نشأ في الغرب أدب يسمى بأدب "الفكلور" يُعنى بجمع التراث والمأثور ودراستهما، ومن جديد رأوا في الأمثال الشعبية مرجعا أساسيا للتعرف على هوية المجتمع ومكوناته.

ومع زوال الحدود الثقافية بين الشعوب والأمم في عصر العولمة، برزت أهمية العودة من جديد لهذا التراث لتأكيد الوجود الحضاري للأمة العربية والإسلامية، ولعل هذا ما يفسر ظهور بعض المؤلفات لأقلام متخصصة وغير متخصصة تجمع ما أمكنها من أمثال متداولة وشائعة فصيحة وعامية، وإن اختلفت المناهج في هذه المؤلفات إلا أن الفكرة طيبة والغاية نبيلة.

يؤكد المختصون أن نشأة المثل تكون عبر مصدرين :

- الإنسان العادي الذي يعكس كلامه تفكيره الواقعي.
- الإنسان المفكر، الفيلسوف الذي يقرأ الواقع ويحاول تعليل الظواهر وشرحها وتفسيرها، وهو ما نعثر عليه في كتب الآداب والتاريخ وغيرها.

الكثير من هذه الأمثال مبني حول قصة واقعية أو حادثة معروفة في التاريخ، إلا أن هناك كثيرا منها بني على خرافة أو أسطورة أو حكاية شعبية من الوسط العامي.

لذلك يعتقد بعض الباحثين الاجتماعيين أن الأمثال الشعبية ليست وليدة نظام فكري أو سلوكي كما أسلفنا، بل هي رؤية تعبر عن السيرورة

الحضارية للشعوب في ارتباطها بماضيها وحاضرها ومستقبلها، حيث يشترك أكثر من ظرف في نسج صورة المثل، وعلى العموم يساهم في بناء المثل العلماء ورجال الدين والسياسة والأفراد العاديين البسطاء مما يعطي المثل ديناميكية التأثير، ويربطه بالأحداث والمواقف المختلفة في الحياة اليومية[6].

واللافت للانتباه هو تشابه بعض الأمثال لدى الأمم والشعوب على الرغم من طابع الخصوصية التي تتحلى بها هذه الشعوب والأمم، ويمكن أن يرد هذا التشابه في جانب كبير منه إلى حقيقة هامة وهي أن مضمون هذه الأمثال واحد في كل مكان وزمان، بالإضافة إلى ظاهرة التأثير والتأثر الناتجتين عن رحلة الثقافات وامتزاجها.

وتأسيسا على ما قدمنا يعتبر المثل الشعبي من أكثر فروع الثقافة الشعبية ثراء في اللغة، يعبر في معظم حالاته عن نتاج تجربة شعبية طويلة تلخص من خلال حكمة[7]، واعتمادا على ذلك يعكس المثل بصدق عادات الشعوب وأسلوب عيشهم ومعتقداتهم ومعاييرهم الأخلاقية.

والأمثال في تصويرها لأنماط البشر وسلوكهم الإنساني بكل أشكاله تلقي الضوء على ضرورة المحافظة على بعض القيم كصلة القربى التي ركز عليها الإسلام، وأوصى بها القرآن (وأُلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى ببَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ)، وقول رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) : "من أحبّ أن يُبسط له في رزقه وينسأ له في أثره، فليصل رحمه"، وامتدادا لهذه الروح جاءت الأمثال مرددة : (نقطة دم ولا قنطار محبة)، (ما تجوز صدقة وأهلها جياع).

كما اهتمّت الأمثال بتصوير المخادع والمحتال والتحذير منه (مية من تحت تبن)، (يفتي على إبرة ويبلع مسلة)، (عامل إمارة وأخته بالخمارة).

وهكذا يتبين لنا من مجمل ما تقدم أن الأمثال الشعبية تترجم المخزون الديني والقيم الاجتماعية في ذاكرة ابن الشعب، وفي المحصلة يمكننا القول إن

هناك توافقا بين التوجيهات الدينية والأمثال، ولا مناص لدارس علم الاجتماع الديني من الوقوف على هذه الدلالات.

وقد أكدّت الدراسات الميدانية في هذا الحقل أن المثل ليس مجرد شكل من أشكال الفنون الشعبية، وإنما هو صراع مع الحدث يدفع بالفرد أو الجماعة إلى صياغة المثل، لذلك نلاحظ سرعة تأثيره في المجتمع وانسياب هذا التأثير إلى أعمق أعماق الأوساط الشّعبية بمختلف تركيباتها[8].

وتسري قاعدة النشأة والتأثير في المجتمعات البشرية كلها وإن اختلفت مرجعياتها الدينية والثقافية والإثنية. فالأمثال الشعبية بهذه الأهمية يمكن أن نتصورها مؤلفا ضخما يقرأ فيه الباحث المهتم بهذا الحقل أخلاق المجتمع وعاداته وطرق تفكيره، ولعل هذا ما حدا بالاستعمار الفرنسي إلى الاستعانة بعلماء الاجتماع والإثنوغرافيا والأنتروبولجيا حيث وفرت السلطات الفرنسية حينها لهؤلاء كل ما من شأنه مساعدتهم للوصول إلى جمع التراث بما فيه الأمثال وإجراء دراسات حوله وتزويد السلطات العسكرية بنتائج هذه البحوث، وقد كان بعض القادة العسكريين من ذوي التخصص. يؤكد الباحث عبد الحميد بورايو أن الاستراتيجية الحربية واللوجستية الفرنسية للتغلغل في الجنوب الجزائري اعتمدت أساسا على نتائج هذه البحوث وعلى الرغم من تعارض بعضها مع المصالح الآنية لمجتمعاتنا آنذاك إلا أنها تمثل اليوم مرجعيات لا غنى عنها للبحاثين الجزائريين -وغيرهم- في العلوم الاجتماعية والإنسانية الخاصة بالمجتمع الجزائري.

ظاهرة التّناقض في الأمثال الشّعبيّة

يؤثر المثل الشعبي في سلوك الناس بشكل كبير كما سبقت الإشارة إلى ذلك، غير أنه من المفيد أن نلاحظ هنا أن كثيرا من هذه الأمثال تتناقض أحيانا حتى ولو ارتبطت مصادرها بسياق مجتمعي وظروف جد متشابهة إلا أن هذا التناقض ظاهري فقط، لأن الحالات الاجتماعية والتجارب الفردية

شديدة التغيير والتنوع، ولكل حالة تجربة ما، تعبر عن مثل بعينه ولو اكتفت الأمثال بذكر جوانب معينة وأهملت أخرى سعيا وراء تلافي السقوط في المتناقضات لما عُد المثل صورة للفكر الشعبي وخبراته ولكانت الأمثال تعبيرا عن جزء ظاهري، واختفت جوانب حياتيّة أخرى كثيرة، لأن الأمثال لا تقوم قطعا بإظهار سلوك فئة مميزة من البشر في مظهر منطقي متجانس وأمام وضعية بحث معينة، بل الأمثال خزانة للتراث، تتراكم فيها صور الحياة، وعبرها تبرز التناقضات الحياتية، وتنوع المواقف البشرية، وفق الظروف المحيطة بالحادث.

ليست الأمثال إذن ذات موقف أخلاقيّ أحاديّ ثابت، بل إنها تتضمن أحيانا نوعا من التضاد يثير الدهشة ويستدعي الابتسام، فالحياة ليست كلها جدا ومثلا عليا، بل هي خليط من جد وهزل وخير وشر وحق وباطل والحياة ملأى بهذا التناقض الذي يعكس جدلية الحياة، فلكل حالة لبوسها كما يقال، فقد تجتمع الرحمة مع القسوة في مَثلين يعالجان حالة اجتماعية واحدة. إن مجتمعات أنجبت الجاحظ الذي كتب "المحاسن والأضداد" يمكنها أن تتقبل بل بإمكانها أن تدرك وتتذوق هذه التناقضات والأضداد التي تحفل بها مدونة الأمثال العربية.

أمثلة هذا التّناقض على صعيد النّصّ

من بين المفارقات في رصد أحداث الحياة التعامل مع مظاهر البخل والكرم، فقد يستسيغ المجتمع تارة هذا ويتنكر طورا له. هناك أمثال تحثّ على الكرم والجود، وأخرى تدعو إلى الاعتدال وأحيانا إلى الحيطة والحذر من يوم الشدة، (البطنة تذهب الفطنة)- (اللي يصرف ما يحسب) كما أن صلة القربى حقل قيل عنه الكثير، تارة تدعو الأمثال إلى التمسك بروابط صلة القربى وطورا تحذر من القريب (البعد عن الناس غنيمة)-(الأقارب عقارب)-(أهلك لا تقربهم، يقرصك عقربهم)-(سوء الظن عصمة، وفي المقابل (الناس للناس)، (إيد وحدا ما تصفق).

تشجيع الزواج من ذوي القربى (حلاوة الثوب رقعة منو)، (خذ الطريق المسقمة ولو دارت واد بنت العم ولا بارت)، وفي المقابل (أبعد اللحم على اللحم لا يخيس) و(موت المرا سترة).

كما شجّعت الأمثال على التعامل مع الجار ولكن حذرت منه (جارك القريب ولا أخوك البعيد)، (الجار قبل الدار)، وبالمقابل (اللي وطي حايطو تنط عليه الكلاب)- (فوت الجار على الجار أولها مهتة وآخرها معيار).

كما تحذر الأمثال من المرأة وتحث في الآن ذاته على قيمتها الاجتماعية الكبرى :

(آمن للحية ولا تامن لمرية)، (البيت اللي ربه مرا كل ما له لورا)، (مسمار بالحيط ولا مرا بالبيت)، ولكن الأمثال تقول أيضا : "الخير مرا والشرّ مرا".

الإحالات

1- كلودين شولي، *انثروبولوجيا و/ أو سوسيولوجيا؟ التفاتة إلى الخلف لدراسة ممارساتنا في هذين الحقلين*، مجلة إنسانيات، عدد :27 مارس 2005، ص، 6.

2- عبد الغفار محمد أحمد، *المأثور الشعبي ونمط الإنتاج*، *المجلة العربية للثقافة*، عدد خاص بالمأثور الشعبي في الوطن العربي، تونس، 1999.

3- جمانه طه، *موسوعة الروائع في الحكم والأمثال*، الدار الوطنية الجديدة، الطبعة الثانية، 2002، ص، 13.

4- *موسوعة الروائع في الحكم والأمثال*، ص، 23.

5- المرجع السابق، ص، 24.

6- عبد الرحمان أيوب، *الذاكرة واللسان*، المجلة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1999.

7- الفرق بين المثل والحكمة، ليس المثل حكمة وإن تضمنها، وقد يتجاوزها احيانا بعمقه ومدلوله، فهو يعبر في ظاهره عن مرحلة زمنية وتاريخية معينة، ويحمل في باطنه روح الردع والاحتجاج والتوعية، كما انه يصدر عن اي فرد في المجتمع، نتيجة موقف محدد أو معاناة فردية. أما الحكمة فهي عامة في الأقوال والأفعال، تولد عن تفكر وتبصر في شؤون الحياة، وغالبا ما يكون قائلها مشهورا في محيطه يتمتع بقدر من العلم والفلسفة والمعرفة. وقد يتشابه المثل مع الحكمة في بعض مظاهر الصياغة كالإيجاز، والتكثيف والعبارة.

8- عبد القادر شرشار، *الذاكرة والمأثور الشعبي*، مجلة التراث العربي، العدد : 86- 87، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص، 47.